من الأدب المنحول

في عيد ميلاد المسيح

المرحوم مصطفى صادق الرافعي

« قلت في العدد الماضي إن صديقا من أصدقاء الرافعي طلب إليه مرة أن يعد كلمة عن المسيح لتلقيها فتاة مسيحية في حفلة مدرسة أجنبية في ليلة عيد الميلاد ...

« وكتب الرافعي كلمة في تمجيد المسيح فدفعها إلى صديقه . وألقتها الفتاة في محفل حاشد من المسيحيين ، فكانت عند أكثرهم إنجيلا من الانجيل ... »

« فهذه هي الكلمة التي عنيت » سعيد العريان

أيها السادة :

ملك من ملائكة الرحمة ، يهبط من سماء الله آتياً من حدود الأبد ، ولجناحيه حفيف طالما أنست به نسمات الجنة ، وتعلقت بأطرافه أرواح أزهارها الخالدة ، كأنها معاني الورد في لفظ عطر الورد ...

صفّ جناحيه العظيمين ثم خفق بهما خفقة ، فازورت له سماء وسماء ، وأسلمه فضاء إلى فضاء ؛ فإذا هو في ذؤابة هذا الكوكب الأرضي ؛ فوقف هُناك عند الحد الذي أقامه الله بين المعنى الخالد والمعنى الفاني ، الحد الذي يبتدىء منه ضوء الشمس رقيقاً مستشعراً من رحمة الله ، فيكون للمخلوقات الأرضية نوراً وحياة معاً ، وهو في أصله لهب ماحق لو ألقيت فيه كرة الأرض لاستحالت في لحظة واحدة شعلة واحدة

هناك حيث تزدحم الأقدار ، على مداري الليل والنهار ، وقف الملك الكريم ولا تزال على تراخم جناحيه مسحة زاهية من نعيم الخلد ، ولا يزال فيها روح من ريحان الجنة ... وقف ينظر فاذا الأرواح الانسانية ساعدة من الأرض في زحام ، منهزمة من شرور الناس أيّ انهزام ، متقهقرة إلى ربها بعد المعركة بلا نظام.

فصرف وجهه ناحية ثانية ، فاذا دعوات المظلومين ، وأنات المحزونين ، وتأوهات المساكين ، وزفرات الوالدات والوالدين فانفتل إلى ناحية غير الناحيتين ، فاذا الحياة الأرضية كأنها خيط وضع من مقراض القضاء بين شقين ، أو غريق يخبط في لجة بين ساحلين ، ولا يدري قبره في أي الساحلين ، أو المحكوم عليه بالموت أوقف بين سيفين ، ولكن الموت واحد في السيفين .

فلم يبق من الجهات الأربع إلا جهة واحدة فتحول إليها الملك ، فاذا هناك في أقصى الأفق معنى الرحمة الانسانية وقد انكمش وتضاءل وأخذ منه الهزال كأنه مريض ، أو كأن الحزن على الناس قد أذابه فقطع الرجاء منهم وانزوى في ناحية ينتظر نهاية هذا القدر المنصب من السماء على الأرض .

جزع الملك من ذلك وكاد ، وهو قطعة من الخلد ، يداخله الخوف ويخالجه الشك وتمسه بعض آثار الحياة الثانية ، فقال ما بالي قد تبلدت أجنحتي من رشاش هذه الدموع وهذه الدماء ، وما بال هذا العالم الآخر ليس فيه إلا متألم لميت أو متألم لحي أو متألم لنفسه ، وما بال الحياة قد أمست من شدة بؤسها وكدرها وهمومها تطحن أكثر مما يطحن الموت ؟ هل بقي شيء إلا النفخة في الصور ، وبعثرة من في القبور ، ووقوف الفلك الدوّار فلا يدور ، وانطفاء نور الأرض فلا ظلام ولا نور !

وقف الملك الكريم أربع سنوات وأشهرا [1] وهو ينتظر يوما يرى فيه السماء مسفرة الوجه برضا الله ونعمته ، بعد غضبه ونقمته ، فلما سطع ذلك اليوم المضيء وأرقت بفجره أسارير السماء هز الملك جناحيه على المشرق والمغرب وانتفض في جو الأرض انتفاضة ملائكية أطفأ بردها غيظ القلوب المتأجج الذي تشاتمت به أفواه المدافع زمنا طويلا ، وهب نسيمها الآتي من الجنة فدفع إلى ناحية الجحيم كل روائح البارود ودخان القنابل ولهب النار

ثم ضحك الملك مسروراً فانتثر من ضحكه الابتسام على كل الشفاه ، وأصبح جو الأرض من مطلع الشمس إلى مغربها وهو يتلألأ كأنه ثغر طفل يضحك في وجه أمه .

وسمع الملك حمد الناس وشكرهم وتهنئة بعضهم بعضا ، ورأى الأرض وقد سكنت بعد غليانها وأقبل أهلها يصلحون ما فسد ، ويبنون ما تهدم ، ويديرون في الأرض حركة جديدة ويسخرون العناصر لبناء الطبيعة الاجتماعية أو لهدمها كما كانوا يفعلون

(١) يشير إلى سني الحرب ، وأحسبه أعد هذه الخطبة في عيد الميلاد من سنة ١٩١٨ « العريان »